القسم الثانى

١ - مؤتمر (أم القرى)

حين يتوجه ضيوف الرّحمن - لرمى الجمرات ، يكون الواقع العربى والإسلامى حولنا يحتاج إلى رمى جمرات أخرى ضد الواقع العربى المتردى ، حيث يسعى القادة العرب الآن لإنجاح العمل العربى المشترك فى مؤتمرات قمة معاصرة . . لا تنتهى . .

وإذا كان ضيوف الرحمن يصعدون إلى منى أو يهبطون إلى مكة ، فإن هذا يذكرنا بما دعا إليه عبد الرحمن الكواكبى منذ قرن أو يزيد فى كتابه (أم القرى) ؛ فقد انتظر الكواكبى يومًا أو اثنين على ذلك ليدعو داخل كتابه إلى طريقة - مستفيدًا من الجمع الكبير - ليرمى الجمرات التى تحث على العمل العربى المشترك ؛ وهو ما يلتقى معه - بشكل أو بآخر - بسعى قادتنا إلى مؤتمر قمة لمواجهة هذه الأخطار الشيطانية فى مواجهتها . فلنترك ضيوفَ الرحمنِ يُلقون بجمراتهم الآن ، ونقترب أكثر لما دعى إليه الكواكبى .

ربما كان كتاب (أم القرى) هو أول من دعا إلى (جمعية) تقترب فى شكلها العام من مؤتمر القمة ، الذى يقام الآن ، ففى أول صفحة نقرأ تحت عنوان الكتاب هذه العبارة (وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية) .

معنى هذا إن أول ما يطرأ على الذهن عند المضى مع الصفحات الأولى إن الكواكبى كان يسعى للخلاص من الحاضر السيء فى نهاية القرن التاسع عشر بالتنظيم السياسى ، الذى أطلق عليه فى أول الكتاب (مؤتمر) ثم راح عبر صفحات الكتاب يشير إليه بهذا التجمع أو (الجمعية) . .

وكل هذا ، ولم يغادر الهدف الذى سعى إليه من ضرورة التكاتف من أجل مواجهة العدو الشرس الوقح أمامنا ومن هنا ، فنحن أمام عدة اجتماعات (الأول منها يبدأ فى ١٥ ذى الحجة وينتهى فى ٢٤ ذى الحجة) ومن ثم ، فنحن أمام (وثيقة) تقول إننا لن يقدر لنا الحياة اليوم إلاّ بمؤتمر قمة (رمز للقومية العربية) يكون قادراً على التوجه إلى الغرب (بكتلة) واحدة متجانسة ، ومواجهة الغرب (بقلب واحد) .

وبدهى أنّ الكواكبى لم يكن ليقدم على هذا لولا ما راعه من فقدان روح العمل المشترك ، ومن ثم ، فإنّ دعوته هنا انصبّت على هذا المكان الوحيد فى العالم ، الذى يجتمع فيه كل هذا الجمع العربى / الإسلامى (لأداء فريضة الحج) ، وهو شكل يمكن أن نلاحظه يتكرر بشكل مجازى فى مواضع أخرى كثيرة سواء الاجتماع لصلاة الجماعة أو الجمعة وجمعية الحج . . وما إلى ذلك . .

كما أنه لم يكن ليقدم على هذا لولا ما أفزعه من سيادة روح الفتور ، مشخصًا الحاضر بأن السبب هو (. . فقدان الاجتماعات والمفاوضات ، وذلك أن المسلمين فى القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية « حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج » ، وترك خطباؤهم ووعّاظهم ، - « خوفًا من أهل السياسة » - التعرض للشئون العامة ، كما إن علماءهم صاروا يسترون جبنهم باعتبار التحدث فى الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يغنى . .) .

قضايا الأمة العربية العامة والملحة :

وحديث العلماء نرجئه - لخطورته - إلى موضع آخر .

فهل يختلف هذا الماضى منذ قرن عن الحاضر بعد قرن ؛ حيث نعيش الآن . .

ورغم أنه غلبت على دعوة الكواكبى مسحة من السرية التى كنا نعرفها فى القرون السابقة ، فإن دعوته واجتماعاته المتوالية طيلة شهر الحج إنما كانت تُدفع دفعًا علنيّاً عبر كتابه المنشور إلى نفض الفتور ، وتحدى سريان الخمول فى الأمة العربية . .

ورغم أن القراءة السريعة لكتاب (أم القرى) والإشارة إلى المندوبين من البلاد الإسلامية تشير إلى أن الكواكبى كان يدعو إلى دولة دينية ، فإن القراءة الواعية - على

العكس من ذلك - ترينا أن الوعى العربى كان أول ما يلفت النظر من الوعى العقيدى ، بل إن الوعى العربى يمثل خطوة سابقة للوعى العقيدى ، فيما بعد ، وهذا يعنى أن حديث (أم القرى) إنما كان حديث مثقف واعيًا أشد الوعى بالأخطار التى تمر بها المنطقة العربية ، ومن ثم ، فإن ترتيب وضع الأسماء حسب حضورهم فى هذا المؤتمر كان يشير إلى أن الأقطار العربية ، إنما كانت تمثل كتلة مركزية فى الدائرة الإسلامية الأوسع ، ويلاحظ البعض هنا أن الترتيب الذى جاء فى كتابه قدم المندوبين الذين « يمثلون أجزاء العالم العربى من المحيط إلى الخليج على المندوبين ، الذين يمثلون شعوبًا مسلمة غير عربية ، أو أقليات مسلمة فى بلاد غير إسلامية » .

وهو ما يشير تقدم فكرة العروبة وإيثارها فى هذا الموضع .

وحتى حين كان يذكر لفظة (المسلمين) ، كان يقصد بها فى المقام الأول لفظة (العرب) ، أو كان - بشكل أدق يقصد الحضور العربى - أكثر منه فى الإطار العام .

إننا فى الاجتماع الثانى عشر (يوم الاثنين والعشرين من ذى القعدة سنة ١٣١٦هـ) نجد أن قانون الجمعية لتعليم الموحدين يحتوى على مقدمة ؛ يشير فيها إلى أن المسلمين فى حالة فتور عام ، ولا يلبث بعد عدة نتائج أن يكتب بشكل أكثر تحديداً ووعيًا بالفكرة العربية هذه النتيجة :

(- الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة فى العرب خاصة)

ويشير هنا محمد عمارة إلى أن الكواكبى ، رغم نزعته الإنسانية والإسلامية ، قد كان من أبرز الذين وضعوا بذور الفكر القومى العربى فى عصرنا الحديث ، وهو قد أبصر نذر الغروب لفكر الخلافة الإسلامية غير العربية ، وبداية النهاية لسلطان العثمانيين ، وكذلك الزحف الإمبريالى الغربى على بلاد المسلمين ، ولم يجد خلاصًا للعرب والمسلمين من كل ذلك إلاّ فى « خلافة عربية » هى التعبير عن إيمانه بالدور القيادى للعرب وحضارتهم فى مهمة النهضة بالشرق .

وهو ما يبدو أكثر وضوحًا فى ترتيب الحضور للجمعية أو (المؤتمر) .

إن الحضور - حسب ترتيب الكواكبى - كان يبدأ هكذا من (حلب والشام وفلسطين ومصر واليمن والعراق ونجد والمدينة ومكة وتونس ومراكش) ، ثم تأتى بعدها الأقليات التى تأتى من كردستان أو الهند ثم فارس) . . إلخ ، كما أننا نلاحظ فى (اللاحقة) ، التى يضيفها الكواكبى فى نهاية الاجتماعات استخدام ألفاظ وعبارات لها دلالة كبيرة فى إيثار الفكرة العربية فى هذا التجمع ، فهو يكتب أنه فى ختام إحدى الجلسات ، وقف البعض ليشير إلى :

- إقامة خليفة عربى .
- الخلافة العربية .
- وظائف الشورى العربية .

كما أن تريد عبارات من مثل (أليس التُّرك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبثُ به الأهواء ، ولا مرجع . .) يعقب عبارة (إن الغيرة على الدين وأهله والاستعداد لتجديد عزِّ الإسلام منحصران . . فى العرب) .

وفى موضع آخر يضيف :

- إن العرب من المسلمين أقرب من غيرهم للألفة وحُسْن المعاملة والثبات على العهد ، وهو ما يشير - فى السياق الأخير - إلى التجمع العربى الذى يتحالف (ككتلة عربية) مع التجمع الإسلامى أو يتعاضد معه .

كانت الفكرة العربية من الوضوح ؛ بحيث كان من الصعب أن يفهم فيه شيئًا مغايراً .

وهذا - كما أشرنا - أقرب الآن إلى مؤتمر القمة العربى الذى يدعى إليه الآن كلما واجهتنا الأزمات ، وكنا فى أشد الحاجة إلى التضامن لمواجهة العدو الذى يحيط بنا من كل جانب ؛ ومن يتلفت حوله اليوم يجد جملة من هذه المخاطر ، نحن أحوج فيها إلى روح الأفغانى التى تتجسد - إلى حد كبير - فى مؤتمرات القمة العربية ، التى تعقد منذ سنوات بعيدة .

لقد تعثرت المفاوضات على المسار الفلسطينى لتعنت الصهاينة وعنصريتهم ، وجاء زعيم الليكود ذو الوجه القبيح والمواقف العدوانية العدائية تجاهنا ، ومازالت الإدارة الأمريكية الجديدة تتحفظ فى مواقفها ، وهى أقرب إلى الجانب المضاد أكثر من كونها (وسيطًا) محايدًا .

كذلك ، فإن المسألة العراقية مازالت تفرض - فى التطورات الخطيرة والقذف التى تتعرض له أزمة خطيرة أضف إلى هذا إن مهزلة (لوكيربى) لم تنته بانتهاء إعلان الأحكام الأخيرة ، كما إن الدعوات العنصرية مازالت تعلو داخل إسرائيل ، سواء من أحزاب العمل أو الليكود أو العناصر الدينية المتعصبة ، فضلاً عن الأخطار التى نواجهها على المستوى الاقتصادى العربى خاصة فى عصر (العولمة) حيث مازالت - داخل أقطارنا - يعوزها الكثير من الحكمة والوعى لإحكام عقولنا لقيام (السوق العربية المشتركة) إزاء سياسة (اقتصاد السوق) ، فكأننا مازلنا أقطارًا عديدة بسياسات اقتصادية عديدة أمام عدو واحد مازال يملك أدواته الاقتصادية .

أضف إلى هذا كله التفوق التكنولوچى الرقمى الكبير فى الجانب الآخر ، وهو ما نردده كل مرة ، ولن نمل من ترديده فى كل مرة .

هذا وغيره ما يدفعنا اليوم للتنبه - أكثر - إلى ضرورة التضامن العربى .

التضامن العربى لرمى الجمرات فى وجه الشيطان الأكبر أو أعوانه الكثيرين . .

* * *

٢ - البحث عن العلماء

أفضنا - المرة السابقة - فى دلالة توجه ضيوف الرحمن لرمى الجمرات . . .

وأضفنا إلى رمى الجمرات معنىً آخر وجدناه ظاهراً أكثر ما يكون الظهور فى كتاب عبد الرحمن الكواكبى (أم القرى) ، حين خرج من دياره (إحدى مدن الفرات) قبل قرن من الزمان ١٣١٦ (١٨٩٨) لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج - على حد قوله - ومن ثم ، فإن الاجتماع الذى كان قد دعا إليه السيد الفراتى (الاسم السرى الذى اختاره) بدا كأنه هو الاجتماع الذى يجب أن ندعو إليه بعد كل هذا الزمان .

ولأن المسئولية فى هذا - قبل قرن أو بعده - تقع على الأمراء والعلماء ، فإن التمهل أكثر عند الآخرين - العلماء - هنا أول ما يشغلنا فى تفسير سبب الخلل الذى نعيش فيه ، خاصة ، أننا نعيش فى زمن تتزايد فيه الأخطار الأجنبية . .

وكلما زاد الخطر الأجنبى زادت حاجتنا إلى البحث عن أسبابه المباشرة ، ومن هنا نتوقف داخل (أم القرى) وخارجها عند الخطر الداخلى فلنتمهل - قليلاً - للبحث عن العلماء والمثقفين .

كان الهدف الرئيس الذى يجب البحث عنه هو مدى الضعف والتخلف ، الذى نحن فيه ، أو بلغة السيد الفراتى (الفتور العام) الذى لحق بنا ، وبدا أن أهم أسباب الفتور تقع على العلماء ، علماء هذه الأمة بتعريفاتها وتطور أنماطها فى القرنين الآخرين حتى اليوم ؛ وهو يردد من آن لآخر أسباب الفتور ، وهو يتلخص إما فى «ترك الحرية» وإما « ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ، وفى موضع آخر « فقد الرابطة الدينية والوحدة الخلقية » . . وما إلى ذلك ، ومن ثم ، تداعى أنماطه أو أصنافه ، سواء لدى العامة أو لدى الخاصة .

إننا نقع هنا على عدد كبير من أنماط العلماء .

وتتعدد هذه الأنماط وتتحدد فى زمننا فى نمط واحد ، هو النمط المؤيد ، هذا النمط المؤيد فى مواجهة السلطة نجده يتفرع إلى أنماط كثيرة ، يعثر عليها السيد الفراتى فى كل (اجتماع) يحضره مع إخوانه . .

إن المثقف المؤيد للنظام يتمثل فى أصناف كثيرة ، فنحن نجده ، كلما زاد الحال عنتًا وتضييقًا ، نسأل فنجد أنفسنا بين صنفين ، نجدهم على هذا النحو :

- إما جبناء يهابون الخوض فيه .

- أو مراءون مداحون يأبون أن تخالف أقوالهم أحوالهم .

وهؤلاء هم الذين يسعون إلى أن يبقى الحال على ما هو عليه ، لا يتحدثون عن سلبيات ، أو يأخذون على يد الظالمين ، وإنما هم محتاطون لأنفسهم ، فلا يقبلون على الإصلاح ، ولا يترددون فى أن يداهنوا ويؤكدوا حسن الحال وما إلى ذلك .

(ونسأل أنفسنا هنا : ألا نعرف هؤلاء فى زمننا ؟) .

وحين نبدأ البحث عن سبب تشوش الدين والدنيا على العامة ، فنحن أمام صنف ثالث ، يصفه السيد الفراتى فيراه فى :

- هؤلاء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيعوه ، وضيعوا أهله ؛ وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم فى الأمة مقام الأنبياء فى الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . .

(ونعود للسؤال : ألا نعرف هؤلاء فى زمننا ؟) .

ورغم إنّ كثيرًا من الحاضرين يسهبون كثيرًا حول هذا النمط الأخير من العلماء (المدلسين) سواء فى خداع العامة بالأقوال المنسوبة إلى العقيدة أو وضع الأحاديث المكذوبة أو فعل أى شىء لينالوا (نفوذًا عظيمًا) . . فإنه ينصرف فى الاجتماع الثالث إلى نمط ثالث من هؤلاء يسميهم (الجهلة المعممين) .

فمن هم الجهلة المعممين ، يجيب هنا البعض بالحرف الواحد :

- هم المقربون من الأمراء على أنهم علماء ، وارتباط القضاء بهم . .

وبعد أن يسهب عن وجودهم فى أكثر من مكان فى هذا العالم الإسلامى الرحيب ، يعيد تحديد صفاتهم من علامات إفساد العلم وإفساد السلطان وما إلى ذلك ، يقول :

(لا ريب أن التسعين فى المائة من العلماء المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الخمسة والتسعين من هؤلاء المتورعين ، رافعى أعلام الشريعة والدين ، يحاربون الله جهاراً ، ويستحقون ما يستحقونه من الله وملائكته . .) .

وقد يكون من المهم أن نتمهل قليلاً عند الأخذ بالحجة عليهم من تمييزهم جميعًا بلباس عروس ، محلى بكثير من الفضة والذهب ، مما هو حرام بالإجماع ، ولا يحتمل التأويل (وهى « التشريفة » المزركشة) .

وهنا نفتح قوسًا كبيراً لنقول فيه إنها التى رفض جمال الدين الأفغانى ارتداءها ، عندما أهداها له السلطان عبد الحميد قائلاً للرسول الذى حملها إليه ، اذهب وقل للسلطان ، إن جمال الدين يريد أن يكون جمال الدين ، ولا يريد أن يكون كالبغل المزركش ! ! (وهو ما نجده فى الكتاب الذى أخرجه محمد عمارة عن أعمال الكواكبى) .

(وهو ما يعود بنا ثالثة إلى السؤال : ألا نعرف هذا البغل المزركش فى زمننا ؟) .

ثم أن هناك نمطًا آخر من العلماء الذين أشار إليهم الكواكبى نجدهم فى العصر العثمانى كما نجدهم فى عصر الكواكبى (القرنين الماضيين) بالشكل الذى نجدهم كذلك فى عصر العولمة ، وهو النمط الذى يمكن أن نطلق عليهم :

- العلماء الجاهلون .

فحين يستطرد أحد الحاضرين عن سبب الفتور ، يرى أن :

(السبب العام هو أن علماءنا اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات ، وأهملوا بقية العلوم الرياضية والطبيعية ، التى كانت إذ ذاك ليست بذات بال ولا تفيد سوى الجمال والكمال) وهو ما يقترب بنا من نمط آخر شاع هذه السنوات من المثقفين ،

الذين يشغلون بأنفسهم عن غيرهم ، أن سبب الفتور والضعف هو نمط المنافقين ، وهو نمط يصف هؤلاء الذين يتملقون السلطان وينافقونه ، ونجد أنفسنا أمام سؤال واحد :

- فماذا يرجى من علماء يشترون بدينهم دنياهم ، ويقبلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم ، ويحقرون أنفسهم للعظماء ؛ ليتعاظموا على ألوف من الضعفاء ، أكبر همهم التحاسد والتباغض والتخاذل والتفاشل ، لا يحسنون أمرًا من الأمور حتى ولا الخصومة ، فتراهم لا يتراغمون إلا بتكفير بعضهم بعضًا عند الأمراء والعامة .

(ونكاد نقفز هنا لنشير بالسبابة : ألسنا نعرف هؤلاء أيضًا الآن) .

وتتوالى اجتماعات (أم القرى) ، وتتتابع أمامنا أنماط المثقفين أو العلماء الفاسدين :

- فهؤلاء لم يرضوا بالشرع المبين ، فابتدعوا أحكامًا سموها علم الباطن ، أو علم الحقيقة ، أو علم التصوف . .

- وهؤلاء انتزعوا بعض المزيدات من مشكلات الأحاديث والآثار .

- ومنهم من اخترع عبادات وقراءات لم يأت بها الإسلام .

- ومنهم جماعة اتخذوا دين الله لهوًا ولعبًا .

- ومنهم جماعة تعتبر البلادة سلاحًا ، والخمول خيرًا ، والخبل خشوعًا ، والصراع وصولاً .

- ومنهم من يطلع فى الكتاب أو السنة على أمر أو نهى فيتلقاه على أمره ومنهم . . (وهنا نسأل بشكل مكرر ممل : ألسنا نعرف كل هؤلاء الآن) .

وهل دار الزمن دورته حقّاً أو عدة قرون أم مازلنا فى العصور العثمانية أو المملوكية أو . . إلخ .

بيد أننا لا نستطيع أن نترك هذا كله دون أن نسأل : وأين ، إذًا ، المثقف الواعى . . المتمرد ؟

وهنا يجب أن نسارع ، إنه فى مواجهة هذه الأنماط السلبية فإن الأمر لا يخلو - قط - من أنماط أخرى إيجابية ، غير أنه من المعروف أننا فى أزمنة الضعف نجد الأنماط الأولى أكثر وأوفر ، وبالعكس ، فإن الأنماط الإيجابية تمثل النزر اليسير .

والأمر المؤكد هنا أن المثقف الإيجابى المتمرد هو نمط موجود ، لكنه يمثل - دائمًا - واحد بين أنماط سلبية كثيرة ، يظل فى معية السلطان يتعامل بحذر وتؤدة ، أو يطل من هامش الحياة لينظر من بعيد بأسى وحزن .

وإلا ، فمن يقل لنا من صاحب هذا الكتاب / الجمعية ، إنه أحد المثقفين (=العلماء) المتمردين فى زمنه على كل أسباب الفتور ، وكل دواعى الضعف ، وكل عوامل الإخفاق . . إنه عبد الرحمن الكواكبى .

* * *

درب الحاج المصري عبر شبه جزيرة سيناء

٣ - شـــاهد عيـــان

كنت قد أشرت هنا إلى سعى ضيوف الرحمن ، من شتى أنحاء العالم ، إلى رمى الجمرات بعد طلوع شمس الثامن من ذى الحجة فى بطن وادى منى . .

وأشرت أيضًا إلى الخاطر الذى كان قد صرح به عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه (أم القرى) قبل قرن أو يزيد ، من ضرورة الإفادة من هذا التجمع الكبير من المسلمين ، ومن شتى أنحاء العالم لعقد مؤتمر أو (جمعية) لابحث عن عوامل فتور العرب والمسلمين فى هذا الزمن الغربى ، حيث عددنا الهائل ، وحيث واقعنا الضئيل ، وحيث يتردد إلى الوقوف أمام الله عز وجل الآلاف - وقد أصبحوا هذا العام بالملايين- وحيث إن نظرةً عجلى على خارطة العالم تشير إلى أن هذا الجمع الضخم يعانى من البؤس والتفرق والتخلف والشتات بشكل ، لم يسبق له مثيل فى تاريخ المنطقة التى نعيش فيها اليوم .

بيد أننى سأترك هذا الجمع الحاشد عند الكواكبى مؤقتًا ، وأصعد خارجه ، حيث قدر لى أن أشهَد تجمع كل هؤلاء البشر ، وما أثاره فىّ كشاهد عيان خاصة لما يحدث لنا جميعًا فى هذا الزمن الغربى الردئ .

إنها شهادة (عيان) لما يمر به عالمنا الإسلامى والعربى فى هذا الزمن الغربى ؛ فلنبق عند مكة حتى العود إليها ثانية بعد مشقة الطريق ورفقة الشعوب التى جاءت من (كل فج عميق) .

* * *

لا يستطيع مؤدى الفريضة أن يشارك فى شعائرها دون أن تلفت نظره أكثر من ظاهرة .

- نحن أمام **أعداد هائلة غاضبة** ، كانت فى الكتابات القديمة سواء العربية منها التى تصف رحلات الحج أو تتحدث عنها ، تُعدّ بالآلاف ، غير أنها الآن تصل إلى الملايين وتجاوزها .

كانت الأعداد عند كتب التراث والرحلات قبل ذلك تشير إلى أعداد غير كبيرة ، فى حين أنها لم تزد عند ياقوت الحموى فى القرن الثالث عشر الميلادى أو ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر أكثر من عدة آلاف .

كما أنها لم تزد كثيراً عند الغربيين من أمثال جوزيف بتس فى القرن السابع عشر ، أو بيرتون فى القرن التاسع عشر عن مثل هذه الآلاف ، التى كانت تأتى فى مناخ مغاير ، وإن يكن بهدف واحد ، فى حين أنها فى القرن الواحد والعشرين - هذا العام - زادت عن ثلاثة ملايين بالإحصاء الرسمى . ومن ثمَّ ، فإنّ كثافة هذا التجمع الضخم تشير إلى أمر مهم فى هذه الحقبة الصعبة التى نعيش فيها . .

إن عالمنا الذى نعرفه الآن يغلب على جانب كبير منه - المرتبط بالعقيدة الإسلامية - الهدف الواحد فى الذهاب إلى مكة لأداء المشاعر ، وفى كل منهم - دافع يكاد أن يكون واحداً - هو التمزق الداخلى لدى كل فَرد ، والتمزق الملتاع لدى الجمع الكبير . .

الملاحظ أنه مع زيادة الأعداد الهائلة للديار المقدسة ، زادت معها هموم العرب والمسلمين إزاء التحدى الغربى من جهة والتخلف الداخلى من جهة أخرى .

تصادف وأنا أعود فى إحدى مرات الإقامة على عرفات إلى الخيمة التى سكنت إليها . . تصادف أننى ضللت طريق العودة ، فإذا أنا فى موضع آخر ، وبين جمع ضخم يقيم صلاة الظهر ، وكان علىَّ أن أتوقف بسرعة فى الصف لإكمال صلاة (الجماعة) ، وكان علىَّ أن أشهد فى آخر قيام هذه الصلاة إنّ من يؤم هذا العدد الضخم - وهو من لكنته ينتمى إلى بعض الأقطار الإسلامية بجنوب شرق آسيا - إن هذا الإمام أخذ يدعو فى ألم شديد إلى من يقيم الأمة من عثرتها ، ثم راح يطوف ببلاد الشيشان والكوسوفو ومضطهدى الصين والهند وبورما والمذابح التى تقام هنا وهناك للمسلمين وصولاً إلى فلسطين . .

ولم يكن من الصعب أن أُلاحظ فى هذا كله ، أنه فى كل مرة يتهجد صوته ، وتعلو النبرة المشوبة بالبكاء كان المصلون وراءه يرفعون أيديهم بشدة ، ويذهب بعضهم فى (حالة) من الشجن الصوفى أو الحزن لما يحدث فى عالمنا العربى أو الإسلامى فيصيح (آمين) .

ومع اشتداد حرارة الموقف ، كان علىَّ أن أُلاحظ أنّ الرجل لم يترك منطقة تعسة تعيشها الأمة إلاّ وذكرها ، ولم يترك مجزرة عرفتها الأمة فى هذه الحقبة التى نعيشها إلاّ وأشار إليها ، وكان حاضر وعى الشعوب حضوراً حاداً فى هذه البقعة المقدسة وفى هذا الرمن المهين .

كانت الصلاة هنا (= العبادة) انكباباً للتقرّب إلى الله ، وكانت العبادة هنا نذيراً يشير إلى أنه مادام المسلمون يعانون ، ومادامو يعرفون أنه لا طريق للخلاص إلاّ بالتغيير ، والعمل ، فإنّ العبادة تحث على ذلك ، والتقرّب إلى الله يُقربنا من الخلاص فى حالة (الفُتور) وربَّما الضعف العام الذى نمر فيه ، وهو ما لم يخرج عن هذه (الحالة) التى عاش فيها هذا الإمام ووراءه هذا الحشد ، وهو لم يخرج عن الآية القرآنية ، التى صاح بها فى نهاية الدعاء :

- ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون : ٥٢) .

التقوى هنا شرط من شروط الوعى بهذه الحالة ، والوعى لابد أن يؤدى إلى الفهم ؛ فَهْم أنّ العبادة شرط من شروط العمل لهذه (الأمة) الواحدة .

إنه وعى الشعوب الذى يربط بين الحس الدينى وضرورة القيام من أية عثرة ، وهو وعى - فى جميع الحالات وجميع الصور - يدعو إلى العبادة ، التى تدعو إلى الخلاص من هذه المحنة الواحدة ، وضرورة الخروج بالأمة مما هى فيه . .

ومن تجمع الملايين وغضبها نصل إلى دلالة الجغرافيا .

- كان هذا **التجمع الجغرافى** يشير إلى القصد نفسه ؛ إذ كانت الشعوب تتجه إلى مكان واحد لإنقاذ الأمة مما حاق بها من التخلف والتمزق والضياع فى هذا العصر .

كان من السهل أن نكتشف أن رحلات التاريخ لا تتحدث فقط عن الرحيل من أجل طلب العلم والاستفادة من العلماء فقط ، وإنما كان أهم منه - بل وقبله - هذه الرحلات التى تقوم بها الشعوب فى شتى بقاع العالم - لا العلماء فقط - لأداء الحج .

كان التاريخ يحدثنا أن الحُجاج - فيما مضى - كانوا يتجمعون فى قوافل صغيرة ، تنمو رويدًا رويدًا كلما تقدم بها الطريق ، فإذا بنا أمام عدة قوافل ضخمة (للعراق حجيجه وللشام حجيجه ولأفريقيا حجيجها ولشعوب جنوب شرق آسيا حجيجها مع تنوع المناطق وتغير الطباع ، فإذا بالقوافل كلها تمضى لتلتقى فى مكان واحد لأداء فريضة الحج ، والتقاء هدف واحد هو الوعى بضرورة تكاتف أصحاب هذه العقيدة للوصول إلى الخلاص من هذا الواقع الردئ ، ومن ثمَّ ، كانت القيم الإسلامية من ضرورة التغيير والحث على العمل والدعوة بالتوحيد . . ما إلى ذلك هو ديدن هذا التجمع الضخم .

إنه تجمع واحد يقوم على العقيدة بعد اللغة فى مواجهة (الآخر) سواء كان هذا الآخر يعيث فسادًا فى الداخل من الداخل ، أو كان يعيث فسادًا فى الداخل من الخارج ، وفى نهاية الأمر ، فإن الكلمة الواحدة كانت تجمع على ضرورة التوحيد فى العقيدة والتوحّد فى العبادة بقصد التصدى لكل عوامل الفساد و (الفتور) التى تحيق بهذه الأمة .

إن الملايين تتجه من شتى أنحاء العالم إلى مكان واحد لهدف واحد .

- إن عالمنا هنا يحتوى **أجناساً عديدة** وطوائف تدفعها العقيدة إلى قصد واحد .

كنا نتحدث عن العربى مضيفًا إليه أجناسًا من كردستان وبلاد التتار وكازاكستان والترك والشركس وأفغانستان والهند والصين ، فإذا بنا نضيف إليهما الآن بشكل أكثر تمييزًا الآراميين والآشوريين والإيرانيين . . . إلخ .

وفى حين يلفت النظر هنا تواجد عدد هائل من جنوب شرق آسيا ، يلفت نظرنا أيضًا كثافة هذه السلالة التى تنتشر فى المنطقة العربية والشرق آسيوية ، ويلفت نظرنا أيضًا السلالة الحاميّة - الساميّة بتفريعات مختلفة من الأفارقة السود فى أفريقيا وعبر البحر الأحمر . .

وفى حين يلفت نظرنا تواجد القبائل الزنجية المسلمة بكثافة ، لا نفتقد أجناسًا كثيرة - من أصول عربية أو غير عربية - آتية من الغرب نفسه فى أوروبا والأمريكتين ؛ كما أشرنا . .

إننا هنا لم نلاحظ ، قط ، هذا التصنيف الظالم بالأقليات اللغوية أو الإثنية : الأكراد والسريان والترك والآشوريين . . كما لم نستطع أن نفرق بين الطوائف غير السنية (كالشيعة الاثنا عشرية أو الشيعة الزيدية أو الشيعة الإسماعيلية والدروز أو العلويين . .) إلخ .

لقد لاحظنا قبل هذا وبعده ، هذا التوحيد اللافت أكثر لهذا التجمع القاصد إلى هدف واحد ؛ هو إنقاذ الشعوب مما تعانيه .

إنقاذ الأمة الإسلامية من عنت الغرب وأنانيته وعسفه وكيله بمكيالين . . إلخ .

رأيت - على المستوى الشخصى - أحد الرجال الملتحين فى الدور العلوى للحرم ، تشير سمته ولغته القليلة إلى غير المنطقة العربية ، يقف صامتًا لساعات وعينيه لا تشيحُ عن الكعبة ، ولم أفهم من ألفاظه القليلة غير أنه غير عربى ، ولم أفهم من همسه الصامت ودموعه الدالة المستمرة غير أنه يعانى ما نعانيه جميعًا ، دون التوقف عند حواجز لغوية أو إثنية . .

إنهم ضيوف الرحمن فى (أم القرى) ينعون تشتت الأمة وتمزقها ، ومن ثم جاءوا إلى هنا . .

إن الشعوب تتجه من شتى أنحاء العالم إلى مكان واحد وهدف واحد ؛ وخلاص واحد . .

* * *

٤ - رجم الشيطان

مازلت أستعيد عشرات المشاهد التى عرفتها ورأيتها فى منى - موسم الحج الأخير - مما لا يمكن أن ينسى قط ، هو مشهد رجم الشيطان . .

ومشهد رجم الشيطان من الملايين التى جاءت خصيصًا لرجمه ، وتحرص - أشد الحرص ، الآن - على هذا الجزء من المناسك ، لا يمكن أن يفارق ذهنى أبدًا سواء بالمعنى العام له ، أو بما يثيره من رموز تتعدد إيحاءاتها وتتعدد بين هذا الفهم أو ذلك .

كان السؤال الذى ألحّ على هو : **من هو الشيطان الذى جاءت الملايين من شتى أنحاء العالم لرجمه هنا** ؟ كان الحاج لابد وأن يهبط إلى المزدلفة لأخذ الحصوات التى يحملها ويعدها عدّاً دقيقًا حتى يصل إلى منى ويأخذ - على مدى أيام ثلاثة - فى رجم الشيطان بهذه الجمرات ، وهو يصيح الله أكبر . .

وقبل أن نعرض أكثر لدلالة هذا المشهد وتداعية لا بد من أن نتمهل أكثر عند بعض معانى القرآن الكريم للشيطان ، فهى معانٍ ترتبط بالعقيدة فى المقام الأول ، وهى - بالتبعية - ترتبط بمعنى مجازى ، أبعد من المعنى العام . . أبعد من أن تقذف بعدة حصاة على نصب حجرى مقام هناك لمرات عديدة وحسب . .

يحمل الشيطان معانٍ كثيرة نعرفها جميعًا ، جاءت فى الكتب السماوية وتحدد معناها أكثر فى القرآن الكريم ، والقرآن خاصةً حين يتوقف عند الشيطان أكثر من مرة فإنه يشير إلى عدة سمات عند سلوكه الشيطانى أو أتباعه أو عداوته لآدم وبنيه ووسوسته ، التى لا تنتهى ، لتغير من فعل العقل البشرى من الخير إلى الشرّ .

ومن هنا ، يحمل الشيطان دلالة أبعد ، نشير إلى بعض عناصرها هنا بالشكل الذى يسمح لنا فيه هذا الموضع من المقالة ، فقد تعددت آيات القرآن حول الشيطان نشير إلى بعضها :

﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ (النساء: ٧٦) .

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١١٩) .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ (المائدة: ٩١) .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦) .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ (المجادلة: ١٩) .

وهذا يعنى أن الشيطان لا يذكر إلا وتذكر الكراهية والخسران والعداوة والبغضاء ونسيان ذكر الله ، ولدينا حديث يؤكد هذا المعنى ؛ حيث قال رسول الله ﷺ : « **إنما جُعل رمى الجمار والطواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله** » .

وهذا يعنى - ضمن ما يعنى - أن الشيطان الذى أسهم فى إخراج آدم من الجنة بشكل أو بآخر ، والذى استوجب لعنة الخالق ، هو الذى يجب أن يستوجب لعنة المخلوق ، ولعنة المخلوق تعنى القضاء عليه ، فالقضاء على الشيطان أو عدم إطاعته إنما هو العرفان بقدرة الله وتسليم لطاعته . .

والعمل هو عنصر من عناصر طاعة الله التى هى عبادته ، وطاعته ، ومن ثم ، حفظ النفس من الضلالة .

وبقدر ما تقترب من الله بقدر ما تبتعد عن الشيطان ، وبقدر ما ترجم الشيطان وتبغضه ، بقدر ما تكون ذاكرًا صالحًا ، ومؤديًا فروض العقيدة ، فالحج هو فريضة ، ورجم الشيطان من أهم مناسك الحج .

وقد شهدت بأُم عينى لأيام قرابة ثلاثة ملايين من البشر ، وهى تقوم بالرجم ، قرابة ثلاثة ملايين يمثلون قرابة خمسة مليارات نسمة من المسلمين فى العالم ، يقفون فى مشهد ضخم ، ويرجمون الشيطان بكل قوة وحماس شديدين .

الأيدى الكثيرة من جميع الأجناس تقبض على الحجر ، بعنف ، وتبعد باليد فى نصف دائرة إلى الوراء تستمد منها القوة لتعود أسرع إلى الأمام وبقوة مضاعفة لتقذف الحجر ، تصحبها صيحات عالية ضد الشيطان المريد .

وهنا ترجئ المعنى الفردى إلى المعنى الجمعى . .

إنه الشيطان الذى كشف عن وجهه أكثر عقب حرب الخليج الأخيرة ، فإذا بنا فى التسعينيات أمام شمال وجنوب ، أو أمام حضارات متصارعة فى نهاية التاريخ على حد قول منظرى الغرب اليوم (هل مازلنا نذكر كتابات هنتجتون وووكاياما وبرنار لويس . . ؟) وغيرهم . .

إنه الشيطان الذى يواجه الإنسان الشرقى الآن أمام مخاطر القوى الجديدة فى السوق الرأسمالى العالمى ، فإذا بالإسلام هو (إرهاب) ، وإذا بالبحث عن الحقوق هو ارتكاب تهمة الدعوة للحرب ، وإذا بالنظرية العنصرية تصل إلى أقصاها بهذا الغرب ، الغرب الأمريكى بشكل خاص ؛ الذى يحاول الآن إرغام العدو الجديد - على حد قولهم - على الركوع . .

إنه قذف الشيطان الذى يسعى أكثر بالذبح والاحتلال والإحلال ووهم حقوق الإنسان . . ضد هذا الإنسان الشرقى الذى ينتمى إلى تلك العقيدة . .

إنه خلق العدو - بعد سقوط الاتحاد السوفيتى - والهيمنة على مقدرات الشعوب وإمكاناتها .

والواقع أنه شغلتنى للحظات الربط بين قذف الشيطان بحرارة ، والشارع العربى الذى يقوم - فى كل مناسبة تستوجب القيام - بالخروج إلى الشوارع ، والصياح ضد الشيطان ، فربطت بين حجر الشيطان هنا ، وحجر (الأقصى) هناك .

ألا توجه الحجارة بيد واحدة إلى الشيطان . .

ألا توجه الجمرات (الحجارة) بيد واحدة إلى هذا الشيطان . . إن شيطان الغرب الإسرائيلى جزء منه . .

لقد خطر فى ذهنى الربط بين حجر الشيطان هنا ، ورأس هذه القوى الداخلية التى تحاول النيل من مقدراتنا فى الاقتصاد والثقافة والسياسة ، أليس كلاهما يوجهان بيد واحدة إلى الشيطان .

إنه شيطان قوى السوق ، وبعض رجال الأعمال والعملاء الموالين بشكل ما للغرب (عولمته) ، سواء من أبناء كوبنهاجن أو أبناء الديسابورا . .

ثم إنه خطر ببالى - كذلك - الربط بين حجر الشيطان هذا ، ورأس الشيطان الأكبر الذى تمثله القوى الأمريكية فى سياستها المنحازة لإسرائيل ، واستراتيچية التسعينيات ، بوجه خاص التى تقوم على قوات الانتشار السريع والضربات الوقائية والردع وسياسة القوى الجوية الخاطفة ذات التكنولوچيا المتطورة أو - حتى - تلك التهديدات النووية المتكررة ، ضدنا من دولة صغيرة أو كبيرة فى حالة الدفاع عن أنفسنا .

وقد لفت نظرى بشدة - أثناء الرجم - أن عددًا كبيرًا من المثقفين والفنيين كانوا بجانبى يحملون الحجارة ليقذفوها كرمز فردى وجمعى فى آنٍ .

وإن أنسى لا أنسى مشهد هذا الطبيب الذى كانت المعرفة زادت بينى وبينه فى الفترة القصيرة ، التى قضيتها هنا . . هذا الطبيب الذى درس فى لندن لسنوات ، والذى يتابع أحداث المجلات والاختراعات العلمية فى العالم أولاً بأول ، وهذا الطبيب الذى يقصده حشد هائل من الناس لتقدمه العملى فى مجاله ، والمشهود له بالفطنة والذكاء . . هذا الطبيب - وقد حاولت مراقبته أثناء الرجم - لحركته غير العادية - قد نسى كل شىء اللهم إلاّ هذه الأحجار التى يحملها ، فهو يرفع يده بعنف بردائه الأبيض ، وطاقيته البيضاء ، ويعيد اليد إلى الوراء لنصف دائرة ليدفع بها بقوة فائقة مردداً كلمات حاسمة غاضبة كثيرة ضد هذا الشيطان . .

وفى كل مرة كانت قوة الدفع تضعه فى حركة ترنح ، لا يلبث بعدها أن يستعيد توازنه ليعيد الفعل نفسه من جديد ، فينتفض ، ويتخذ حركة الدفع ، ويلقى بأقصى قوة لديه على هذا (العمود) الأسمنتى الفارغ . . هنا (رمز الشيطان) فى صياح عنيف لم ينقطع حتى انتهت الجمرات .

لا يعنى هذا طبعًا أننا نغفل أول الرموز وأقربها فى عملية (الرجم) من محاولة التغلب على الذات ونوازعها ، وإنما نضيف إليها أعداءً أخرى . .

إن الحديث فى ضعف الذات فقط يظل حديثًا فرديّاً يردد فى مجالس العلم ، وبين الخطباء من معنى عدم طاعة إبليس اللعين لله عز وجل ، فلولا فضل الله - عز وجل - لاتبعنا الشيطان ، ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء: ٨٣) . وهو ما يعنى أن فضل الله عز وجل يشير إلى أن التغلب على الذات هى أولى سمات الفضل ، فضل الله ، وطاعة المخلوق فى طاعة الخالق ، غير أنه ليكتمل المعنى أكثر ، إن الخروج من الذات إلى العام (ولا فارق فى هذا الأمر الفصل بين الذات والعام) يظل من أهم ما يجب أن يحرص عليه الإنسان .

إن التغلب على الفردية إنما هى - درجة من درجات - الوعى بالذات الجماعية ، أى تبلور الأمور عبر الشعوب وما تلاقيه من تحديات اليوم .

إن الشعوب الآن تخرج لرجم الشيطان ، ولكنها جميعًا تستطيع - وهنا معنى الرجم الحقيقى - أن تحارب الشيطان وتنتصر .

وحين نقول الشعوب يصبح المثقفون والمتعلمون فى الطليعة .

ويظل المشهد العام هنا ناقصًا ، لو لم نكن واعين أكثر إلى أن مصداقية الشعوب هى هى مصداقية المثقفين والأحزاب والأنظمة وما يجب أن تكون عليه ، نحن فى حاجة إلى الجميع ليتغلبوا على الشيطان سواء فى الداخل والخارج .

وهنا ، فقط ، نفهم لماذا نسعى جميعًا لرجم هذا الشيطان الأكبر ، وهو مضمون الحديث القادم .

* * *

٥ - الجِنَّة والناس

ما كاد إمام الحرم المكى ينتهى من قراءة آخر آية (من الجِنَّة والناس) حتى بدأت تتداعى أمامى كثير من التأملات التى تثيرها مثل هذه الآية الأخيرة من السورة الأخيرة من القرآن الكريم . . فالعلاقة هنا بين الجِنَّة (أو الشيطان أو إبليس أو العفريت . .) وبين الناس علاقة غير عادية ، أو يجب ألاَّ تكون عادية ، فالربط بين اللفظتين ، وهو تكرار فى الكتاب الكريم أيضًا يبعث على الدهشة .

وسرعان ما تتحول الدهشة ، مع استعادة الربط بين الشيطان والإنسان ضمن مفردات - القرآن الكريم - بوجه خاص - إلى شىء من التأمل الذى يجب التوقف عنده .

- **ما صور العلاقة بين الشيطان والإنسان ؟**
- **ثم ما الذى يجعلنا نستدعى المعنى أو نجتهد فى استدعائه والاقتراب منه ؟**

أسئلة كثيرة يجب أن نجيب عنها هنا . .

الإجابة عن السؤال الأول تصل بنا إلى الإجابة عن السؤال الآخر .

* * *

إن مراجعة الآيات التى تربط بين الإنسان والشيطان تدفعنا للوقوف أمام آيتين اثنتين هنا :

- ﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ (الناس : ٦) .
- ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** ﴾ (الأنعام : ١١٢) .

والربط هنا بين الجن أو الجنة والإنس أو الإنسان يستلفت النظر بشدة ، وهو ما يدفع لتقليب النظر فى عديد من الآيات التى تربط الشيطان والإنسان ، خاصة أن اسم الشيطان ومشتقاته يأتى قرابة مائة مرة فى القرآن الكريم فى حين أن هذا الربط المتوازى بين الشيطان والإنسان لا يأتى إلا مرتين اثنتين تثير الخواطر أكثر مما تريحها ، وهو ما نجده - خاصةً - لدى عدد كبير من مفسرى القرآن أو دارسيه على كثرة الكتابات والاجتهادات .

وهل من الإنس شياطين ؟

هذا هو السؤال الذى طُرِح طويلاً فى تراثنا العربى ، ودارت حوله اجتهادات كثيرة ؛ غير أن أغلبها رجحت هذا السؤال وإجابته .

وعبوراً فوق اجتهادات كثيرة هنا ، سوف نشير إلى أهم البواعث التى تدفع إلى الربط بين الشيطان والإنسان . . ربما كان من أهمها ما تذكره كتب السيرة ، من أن الرسول قال لأبى ذر :

(- **هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن**) .

قال : قلت : (- يا رسول الله وهل للإنس من شياطين) .

قال : (- **نعم هم شر الشياطين**) .

وفى القرطبى حوار قريب من هذا ، حين قال أبى ذر لرجل :

- هل تعوذت بالله من شياطين الإنس ؟

فقال : - أو من الإنس شياطين ؟

قال : - نعم ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** ﴾ (الأنعام: ١١٢) . .

ويضيف القرطبى هنا إن قومًا ذهبوا إلى أن الناس هنا يراد به الجن فيموا ناسًا ، كما سموا رجالاً فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ (الجن: ٥) .

ثم تأتى اجتهادات المفسرين والمصنفين : القرطبى والترمذى وابن كثير والنيسابورى والبخارى والأعمش ، ثم النسائى وأبى داود وابن ماجه ومالك وغيرهم كثير فى هذا الصدد ، وهم لا يكتفون بتأكيد أن من الإنس من هو شيطان ، وإنما يصنفون هذا الإنسان الشيطان إلى صور وأنماط عديدة نجدها فى الحياة حولنا ، كما نجدها - فى المجاز أو الواقع - بين كل هذه الكتابات القديمة منها أو المعاصرة .

إن الإنسان هنا يصبح شيطانًا أو كالشيطان . .

- نحن أمام هذا الواضح المباشر فى موقفه ، الذى لا يتردد فى القيام بدوره بشكل مباشر .

- وأمام العدو ، المخادع الذى يحاول أن يلتف حول سامعه لخداعه .

- وأمام الناصح المشفق فى غيه ، فإذا كشفه سامعه وزجره تراجع .

- وهناك الذى يوسوس ولا يتوقف عن الفساد إلاّ بعد أن يكشف أمره .

- وهناك من يقوم بدوره ضمن حاشية السلطان حتى يحوله إلى طاغية .

- وهناك الذى يتاجر فى أقوات الناس ولا يتورع عن الإيغال فى دوره .

- وهناك الذى مارس الفساد بأشكال متعددة فى مواقف متعددة .

- وهناك الواشى الذى يزين الكلام - «ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصُّراح» .

- وهناك الذى يسرق العلم من غيره حتى إذا ما كشف لا يتورع فى رفض اتهامه .

- وهناك العدو الذى يظهر فى ثوب صديق أو قريب .

- وهناك الأكثر شراً من الجن فى الشر حتى إن الأعمش يقرأ (شياطين الجن والإنس) بتقديم الجن فى الآية الأخرى .

- وهناك صور كثيرة تتحول إلى أنماط نعرفها فى العصر الحديث ، كما عرفتها البشرية فى عصورها وأزمنتها المختلفة .

- وهناك . . . .

وتتعدد الصور ولا تنتهى ، وتتحدد الدلالة فى التحليل الأخير ولا تتغير .

* * *

قال صاحبى بعد إنْ استمع طويلاً إلى ما أسهبت حوله :

- هذه صور العلاقة إذًا بين الشيطان والإنسان ، وحسنًا أنك نقلت لنا ما يؤكده القرآن الكريم من أن الإنسان - إذا لم يتق الله - يوشك أن يكون شيطانًا أو كالشيطان . . حسن ، ولكن ما الذى يجعلنا نستدعى هذا المعنى الآن ؟

أجبت : انظر حولك ، أو تصفح عنوانات الصحف أو المجلات أو - حتى - الكتب ، ستقرأ فيها ما حاولنا نقله هنا .

ستقرأ فيها أشياء كثيرة تستطيع إعادة تكوين هذه الصور منها .

عاد ليسأل : هل يمكن أن تمنحنى بعض الأمثلة ؟ أجبت بسرعة : ألا ترى هذه الصور الجديدة ، لنقرأ معًا بعض هذه العنوانات ، فى صحف الألفية الثالثة :

- إخلاء سبيل رجال الأعمال فى قضية (نواب القروض) .
- مشروع قانون لمواجهة فساد مهندسى الأحياء والمدن .
- حل جمعية خيرية أخرى تمارس الفساد .
- تعدد شركات متعددة الجنسيات بمساهميها من الوطنيين .
- الشللية الثقافية فى الصحف والاتحادات و . .
- بعض أساتذة الجامعات المرتشين والسارقين لجهود غيرهم العلمية .
- غياب الوثائق ، وآخرها وثائق السد العالى (تصور !!) .
- ضياع « موتيفات » وأصول الأفلام المصرية (ضياع ذاكرة البلاد ، تصور !!) .
- القضايا الوهمية التى لا تقام ولا تقعد حول تحريم هذا الكتاب أو ذاك .
- الطعن فى دستورية قانون الجامعات الجديد .
- عشرات من المثقفين (المستدركون) و (القائمون) أيضًا .

هل أقول أكثر ، سألت صاحبى ، وأنا أستعيذ بالله من شر الوسواس الخناس ، قد أفسدت حجتى يا صاحبى ، فقد نسيت أن أذكر لك صورة أخرى غفلت عنها ، فقال : ما هى ؟ قلت :

- هناك أيضًا صورة المستمع شديد اللجاج ، كثير الثرثرة ، لا يستمع إلى شيء إلا ويبحث معنا عن المعنى .

- قال صاحبى : ما هذه الصورة ؟

- قلت : نعود من أول المقال لنقرأ ، أو لنتذكر - معًا - صوت إمام الحرم المكى ، وهو يقرأ فى اطمئنان شديد ؛ أول الآية الأخيرة فى سورة الناس(*) .

* * *

(*) ولهذا علاقة بما قاله بعض السلف من أنه إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان فيجتمع عليه الشياطين فيقولون :

- ما لهذا ؟

فيقال : - قد مسّه الإنس .

٦ - العـودة من المدينـة

دعـوة إلى الناس :

مشاعر كثيرة أثارتها لدى هذه الندوة .

مشاعر كثيرة أثارتها هذه الندوة ، التى عقدت بمكة المكرمة ، قبل بداية شعائر الحج بأيام - بدأت شعائر الحج بالتوجه إلى مدينة منى فى التاسع من هذا الشهر . .

ورغم أن الندوة عقدت تحت محور (مكة عاصمة للثقافة الإسلامية) ، فإن هذه المشاعر جاءت مزيجًا من الحزن والألم الشديدين .

أما الحزن ، فلإن مثل هذه الندوة تعقد ، وحال (الأمة) على ما هو عليه الآن (هل تضرب العراق أم لا تضرب العراق ؟) وهو سؤال لا تخرج عنه أغلب المقالات التى تكتب فى صحفنا ، وأكثر الندوات واللقاءات التى تترنى فى إذاعاتنا وفضائياتنا . .

أما الألم ، فإن الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر ، أثيرت بشكل أكثر طموحًا قبل هذا الوقت بأكثر من قرن كامل ، فنحن نذكر ، أن عبد الرحمن الكواكبى كان قد دعا إلى (جمعية) يحضر فيها جمع كبير من ولاة الأمر والعلماء من عام ١٣١٦ (١٨٩٨) فى (أم القرى) ، ومع ذلك ، لم يعقد مثل هذا المؤتمر ، أو مثل هذه الجمعية ، التى تحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من حال الأمة فى ذلك الوقت ، الذى لم نكن نعرف فيه - على مرارته- اكتمال حركات الاستعمار الغربى على المنطقة العربية - فضلاً عن الإسلامية- وما لحق بهذا من وعود وخيبات وهزائم : كوعد بلفور ونكبة ١٩٤٨ و١٩٦١ و١٩٦٧ و١٩٧٠ و١٩٨٢ و١٩٩٠ . . إلى آخر ما نشهده الآن فى العراق .

ومنذ أثار الكواكبى ذلك ونشره فى كتاب كامل (أم القرى) حتى اليوم ، أثيرت مثل هذه الدعوة كثيراً ، وبأشكال عديدة دون أن تخرج إلى حيز التنفيذ ، خاصة ، فى أصعب فترات تاريخنا قاطبة .

ولأن الحال يزيد من سيء إلى أسوأ ، فسوف نتمها عند مثل هذه الدعوات الإيجابية التى أثيرت فى السنوات الأخيرة ، دون أن نتنبه لها بالقدر الكافى ، وهى الدعوة التى تعثر عليها فى كتاب (الحج الفريضة الخامسة) للمفكر المعروف على شريعتى .

لقد سبق شريعتى مفكرنا الكواكبى بأكثر من قرن ، ومع ذلك ، تظل الدعوة قبل قرن أو بعد قرن محض (دعوى) إذا أحسنا الظن ، أو محض (كلام) إذا أحلنا الظن الحسن إلى ظن سيء ، غير مجد أو فاعل .

وفى جميع الحالات لا يتبقى أمامنا غير العود إلى هذه الدعوى أو تلك ، خاصة ، أنها فى العام الأخير ترتبط بتنصيب مكة المكرمة للاحتفال بالعام الثقافى لها . .

فما ملامح دعوى شريعتى ؟

وما ملامح الدعوى التى نتطلع إليها فى الظلام الكثيف ؟

* * *

إن هذه الدعوى مثل (كل) الدعوات السابقة يدعى إليها فى موسم الحج . .

وهى فى موسم الحج لأنها تشهد أعداداً غفيرة من المسلمين الثكلى (بما فيهم المثقفين) ، وقد وصلت أعدادهم مثل هذا العام إلى أكثر من ثلاثة ملايين . . ثلاثة ملايين من كل أنحاء العالم ، تتساوى لديهم الشجون والأنين والفضاء القاتم السحيق . .

هنا سمعنا أنات مسلمى جنوب آسيا بالقدر الذى سمعنا فيه أنات مسلمى العراق- ومن ثم - كل الأقطار العربية بغير استثناء . . بالقدر الذى جلسنا فيه - فى الحرم وخارجه - أمام من جاء من الفلسطينيين - أو من سمح لهم بالمجيء - وهم أعداد قليلة - إلى حج هذا العام ، يجلسون فى سكون يشبه اليتم وتخاذل يشبه الفزع . .

وقل مثل هذا عن الآتين من البلاد المتباينة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، كلهم يعانون من الخزى (الخزى) والضعف والإذعان للصمت ، والحنين إلى شيء مجهول والبكاء والإطالة فيه والأنين والاستمرار به .

هذه صورة عرفتها بنفسى . .

ومن هنا ، فإننى أتحدث الآن عن (الناس) وليس عن فئة بعينها . .

وهو ما لاحظته عند شريعتى ، فهو - يطيل كثيرًا - فى الحديث عن الذات ، أو يخيل إلينا ذلك - ثم ينتقل فجأة - أو يخيل إلينا ذلك - إلى (الناس) ، مشيرًا أو كما يلاحظ أن القرآن الكريم يبدأ باسم الله وينتهى بالناس (قل أعوذ برب الناس) ، وهى ليست مصادفة - بالقطع ليس مصادفة - وإنما هو التوجه الإلهى الذى يعكسه مناداة البشر طيلة أعماله كله بعبارة (إيها الإنسان) . .

فالإنسان ما هو إلا خليفة لله تعالى فى الأرض ، وحامل أمانته من لدن (آدم) ، ومادام هو على العهد ، سيبقى ما شاء الله أن يبقى . . فالشخص الذى لم يحيا كإنسان ، سيقى خالدًا حتى ولو مات . .

لماذا ؟ يضيف شريعتى فى أغلب كتبه : لأن الواحد المفرد فان ، فى حين أنك كإنسان باق .

إن قطرة الماء « إذا لم تكن جزءًا من النهر أو لم تكن ذائبة فى البحر ، فإنها تصبح كقطرة الندى تبقى ما بقى الليل فقط ، وتتلاشى مع أنفاس الصباح الأولى » .

أيها الإنسان ! ادخل إلى النهر ، وتدفق معه ، حتى تلقى البحر وتصير خالدًا . . ويا قطرة الندى ! لماذا تقفين على الشاطئ ولا تلجين النهر ؟!

هذه دعوى أخرى إذًا للإنسان - غير الدعوى السابقة منذ قرن للقادة وولاة الأمور إنها دعوى للناس ولرموزهم .

إنها دعوى بغير فلسفة للعمل (الجمعى) المجيد .

إنها دعوى عقيدية بشرية ، ترى فى العمل المشترك السبيل لإنقاذ الأمة والخلاص . .

إن الدعوى تشير إلى أن الإنسان ليس وحده ، أو أنه ليس وحده فى موسم الحج . . إنه مع غيره ممن هزموا الشيطان على جسر الجمرات . بالرمز ، قبل العودة إلى مكة للوداع . . إنه فرد وحده إذا ظل فردًا . .

لكنه مع وفى خدمة (الآخرين) إذا عرف أنه ليس وحده فى هذا الموسم ، الذى انتهى وشيكًا . . وهو ما يدعونا للاقتراب أكثر من هذه الدعوى .

* * *

إن العالم الإسلامى هنا يشير إلى أنه يجب الوفاء بأمرين :

- أن يأسسوا حلقة حوار علمى ونظرى فيما يشبه السيمنار ؛ حيث يتاح لكل شخص أن يحضر .

- وأن يقيموا مؤتمرًا عالميًا شاملاً .

إنه لا يفصل الحوار العلنى (الناس) بالمؤتمر العالمى (ممثلو الناس) .

الحلقة هنا تعنى (الاختيار) ولكن باسم الجموع ، والمؤتمر هو ما يمكن أن يتمخض عن هذا الاختيار ، أيضًا ، باسم الجموع .

إن الدعوى لا تكون - كما نرى من سنوات - فى قاعات وبين مؤتمرات وأبواب مغلقة ، وإنما فى الهواء الطلق . .

وبشكل مباشر فإن (هذه المؤتمرات لا يحتشد فيها رؤساء الدول ولا ممثلوهم ولا الدبلوماسيون ولا القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين . . كلا! كلا!) .

وهنا تأتى الآية الكريمة لتؤكد الصورة :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج : ٢٧) .

وهذا معناه أن القيم الوحيد ليس واحدًا من البشر ، وليست لجنة رسمية أو غير رسمية وإنما يظل هو (الله تعالى الذى يجتمع الناس هنا فى ضيافته) . .

إنه تأسيس دعوى للناس ليتفرغوا - بعد الحج - إلى ما كان يجب أن يتفرغوا إليه قبل الحج ، وهو الجهاد . .

والجهاد هنا هو الوعى بالأمة الواحدة ، التى يجب أن تتعاهد على الخير بشكل (جمعى) وليس بشكل فردى ، مؤسسات نجدها اليوم تأسست وتعمقت فى عصر (العولمة) حيث أصبحت الجماهير الإسلامية غائبةً حاضرةً لا تملك من مقدراتها شيئًا . .

ومناسبة الحجة هى المناسبة الآن - الذى يتواجد فيها بأجسادهم أكثر من ثلاثة ملايين وبأرواحهم أكثر من مليار من هؤلاء الذين تهفو قلوبهم إلى الأرض المقدسة ، وإلى القيم التى هى - فى الأساس الأول - جاءت من أجل الناس ، قبل أن يعم (الغاسق) ، والاستعانة للخروج من هذه (الحالة) هى العود إلى الله ، والعود إلى الذات التى هى الذات (الجمعية) التى تتمثل فى مناداة الله - عز وجل - (قل أعوذ برب الناس . .) .

إنها دعوة للخروج من الفعل الفردى إلى الفعل الجماعى .

وبدهى هنا أن أكثر من مليار مسلم لن يستطيع أن يأتى هنا ، ويتحدث عبر (سيمنار) أو (مؤتمر) ، وإنما هى القوى الوحيدة التى يمنحها موسم الحج بالرمز ، الذى يذهب إلى أن القضية الآن تهم الناس . . قضية القضاء على الإنسان فى شرقنا هى التى تهم الناس ، وليس جماعة أو مؤتمراً أو زعيماً . .

* * *

والآن ، بعد الدعوة إلى مؤتمر من ولاة الأمور أو العلماء قبل قرن ، أو الدعوة إلى حوار علمى أو مؤتمر للناس بعد مائة قرن . . ماذا نحن فاعلون ؟

ماذا نحن فاعلون والعالم العربى والإسلامى يلقى هذا المصير . . ؟

و (الجمع) فى هذه المنطقة يشهد التاريخ ، الذى يكرر نفسه من القرن الخامس عشر الميلادى ، مروراً بالدولة العثمانية . . وصولاً إلى سايكس بيكو فى بداية القرن الماضى أو سايكس بيكو التى توشك على الانتهاء منها فى بداية هذا القرن . .

بيد أن هذه الدعوة كانت تحمل فى طياتها معنى آخر من الجهاد . . الجهاد الذى يسبق فريضة الحج ، ويلى فريضة الإيمان بالله . . وهو ما نتمهل عنده فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا .

* * *

الفريضة والجهاد !! :

مازلنا نستلهم مكة المكرمة . .

ومازلنا نستلهم - فى هذه الأيام الصعبة قريبًا من بغداد وبعيدًا عنها - نستلهم المعانى التى يطرحها موسم الحج هذا العام ، خاصة ، وأن البلاد العربية والإسلامية تتعرض لغبن وظلم شديد ، ثم أننا - وهذه فرصة أخرى - نحتفل الآن بمكة التى هى - كما نعرف - عاصمة للثقافة الإسلامية . .

ولأن الأمر لا يحتمل بحثًا عن وسيلة للعثور عليها لإنقاذ ماء الوجه (بعد أن كادت تغيب دماء الهوية) ، فإن ما يطرح هنا يجب التنبه إليه بأية شكل ؛ خاصة أن الأمة تكاد تعصف بها هذه الرياح الآتية من مانهاتن ، متذرعة بأى شىء للنيل منا . . وخاصة أن ما يحدث حولنا من محاولة اقتلاع القيم العقيدية يكاد يذهب بالعقول ؛ لهول ما نرى ونسمع هذه الأيام . .

ولأن الجهاد هنا يظل - ونحن نستروح كلمات الرسول - ﷺ - وسيلة من وسائل الخلاص حيث قال : « **لكل دين رهبانية ، ورهبانية الإسلام الجهاد** » ، كما أنه مؤكد فى حديث آخر قول رسول الله ﷺ الحديث الآتى ، الذى يشير إلى تقدمة الجهاد على أى شىء آخر بعد الإيمان بالله ، وهو ما تأكد من القول النبوى .

وقد روى عن ابن مسعود فى هذا الصدد أن الرسول (ﷺ) سئل :

- أى الأعمال خير ؟

قال : « **إيمان بالله ورسوله** » .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : « **الجهاد سنام العمل** » .

قيل : ثم أى شىء ؟

قال : « **حج مبرور** » ، فالجهاد هنا قمة العمل وأهميته ، ومن ثم ، فإن تلمسه واللجوء إليه هو كل ما تبقى لمن أراد أن يحافظ على القيم الإنسانية ، التى يحيا بها فى هذا العالم .

ولأن للجهاد كل هذه القيمة ، فسوف نتمهل عنده أكثر ، خاصة ، أن بعض كتابنا أو ولاتنا من الذين يعيشون بيننا أو الذين رحلوا . . عرفوا ذلك ونبهوا إليه . .

وربما كان أكثر ما يحضرنا الآن - الشيخ القرضاوى فى وعيه المتوثب - ود. على شريعتى فى إيمانه المرتبط بالجهاد المقترن به .

وكلاهما نعرفهما بالتقى والوعى الشديدين .

فلنتمهل أكثر عند قيمة الجهاد ، سواء جهاد الذات أو الجهاد الجمعى .

* * *

وهذه الملاحظة الأخيرة تعنى أن للجهاد درجات : الجهاد الداخلى والجهاد الخارجى . . أما الجهاد الداخلى ، فهو ما تزخر به آيات الأديان السماوية كلها سواء على مستوى الذات - النفس - أو على مستوى دفع الضرر عن المجتمع بالوعى ، بما يجب أن يتحلى به العالم (= المثقف) اليوم . .

فإذا كان علينا أن نشير إلى التوحيد كأولى ركائز أو دعائم العقيدة على أنه الفعل المتعلق بحياة الناس أو فى عبارة شريعتى « إن الذى بقى من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد . . » وقيمة التوحيدية والوحدانية بدهية لا نريد أن نسهب حولها ؛ أما قيمة الجهاد أو مفهوم الجهاد هنا هو « ما تمت مصادرته تمامًا ، ودفن فى مقابر التاريخ » .

الأكثر من هذا أننا نستطيع أن نوافق شريعتى ؛ حين يقول إن مفهوم الجهاد حُرّف عماده المتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأصبح يعنى أن تلوم صديقًا لك!/ فضاع معنى التصدى للفساد والانحراف ومظاهر الفسق فى أشخاص مرتكبيها .

وهو ما يصل بنا إلى عالم عصرنا أو « المثقف » بتعبير هذا العصر .

أو - حتى - أى فرد من الناس - بالتعبير الجليل ، الذى ورد فى القرآن الكريم (يا أيها الإنسان) . .

فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عن أفعاله ، ومن ثم ، مسئول عن مدى إدراكه للأمور ، فإذا كان هذا الإنسان تتوافر فيه سمات الخلق الطبيعية ، ووهب من علامات الوعى والفهم ما شاء الله - عز وجل - ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

فالأمانة هنا المسئولية والتكاليف التى أقبل عليها الإنسان ، ومن ثم ، تتوزع المسئولية فى هذه الأرض على الإنسان بشكل عام ، وإن خص منها فى بعض الأحيان العلماء والمثقفين . .

ومن هنا ، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - فى رأينا - لا تتوقف عن الداعية وحسب ، وإنما تمتد المساحات البعيدة إلى الإنسان ، الذى حمل الأمانة بوعى وإرادة كاملتين . .

وعلى هذا النحو ، فإن الدعوة هنا تكون للإنسان بالمعنى العام ، وليس لفرد دون آخر ، وإن كانت التكاليف تصبح أكثر لدى العلماء والمثقفين فى عصرنا ، فإذا وعى الإنسان إلى مسئوليته بالقدر الكافى وسعى للتغيير من منطلق (الأمانة) ، فإنه يكون قد أدى واجبه ، بل يكون قد انطلق من معنى التوحيد انطلاقًا حميدًا إلى معنى الجهاد انطلاقًا واعيًا . . وهو ما يشير إلى أن المسئولية تقع على كامل وعى المفكر المتجرد ، الذى يستشعر بمدى أهمية الأمانة ، ومدى هذه المسئولية على عاتقه . .

وهو ما يتحقق - ونحن مازلنا فى مناخ الأراضى المقدسة - حين يصبح الإنسان الفرد هو المجموع فى حد ذاته ، ويتحول المجموع الإسلامى إلى فرد أو إنسان يعى قدر المسئولية التى تقع على عاتقه .

وعلى هذا النحو ، فإن الاقتراب من الله إبان أداء فريضة الحج أو بعدها يعنى الاقتراب من الوعى بالمسئولية التى تناط بصاحبها . .

وهو ما يعود بنا إلى المعنى الحقيقى للجهاد ، وهو ، أن تكون واعيًا لدورك ، وأن تعى تمامًا أن الجهاد ينطلق من جهاد الذات ، خاصة ، الجهاد الأكبر الذى أشار إليه الرسول - ﷺ - حين عاد من الجهاد مع الأعداء ، فراح يخبر من معه : أننا عدنا إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس . وهو ما يترجم معنى معاصرًا جدًا . . هو أنه بقدر ما يكون الإنسان مجاهدًا مع نفسه ، بقدر ما يكون مجاهدًا مع الناس أو للناس . وهو ما يفهم معه قول الرسول - ﷺ - الذى سبق وأن أشرنا إليه ليشير إلى المعاناة التى يبادر بها الإنسان الواعى السوى من أن « **لكل دين رهبانية ، ورهبانية الإسلام الجهاد** » . وهو

ما يجاوز بنا الجهاد من المعنى الفردى - أمام الكعبة - على سبيل المثال - إلى المعنى الجمعى - فى الحياة بوجه خاص . .

وفى جميع الحالات ، فإن الجهاد هنا يقترن - وقد خرجنا من فريضة الحج وشيكًا- ومازال يرتبط عندنا بالخروج من (منى) ؛ هذا الخروج الذى اقترن برجم الشيطان وهزيمته ، ومن ثم ، بدء حياة جديدة لا تكون فيها قد فرغت منه - أى الشيطان - وإنما تنبهت أكثر له . .

* * *

وعلى هذا النحو ، فإن مجرد الرجم فى جسر الجمرات لا ينهى القضية ، وإنما يمتد الصراع إلى ما بعد ذلك .

إن قهر الشيطان هنا ينتقل بنا إلى الوعى بمحاولة قهره فى كل مكان . . ويسهم فى إعادة الشيطان إغوائه لك .

ولشريعتى هنا تعبيرات رقيقة واعية فى التنبه لهذا الشيطان ، الذى تمت هزيمته فى (منى) ، فيجب بعد أن تهزم هذا الشيطان هناك . . لا تلق بسلاحك من يدك ، لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ، ولكنه قد يعود من النافذة ؛ لقد هزم فى خارجك لكنه قد يستيقظ فى داخلك . . لقد صرع فى الحرب ، ولكنه قد يستحوذ على السلطة فى السلم / لقد هلك فى منى . . لكنه قد يبعث فيك . .

وعلى هذا النحو ، فإن مغادرة هذا الجسر لا يعنى مغادرة الشيطان أبدًا . .

إنه هزم فى منى ، ولكنه لم يهزم فى داخلك فى أى مكان . .

هزم فى منى ، ولكنه لم يهزم فى عديد من الأقطار العربية ، التى لا تتكاتف الآن لهزيمة العدوان الإسرائيلى والأمريكى ، الذى ينصب شباكه على المنطقة كلها .

هزم فى الجبال البعيدة التى كنت فيها ، ولكنه مازال مستيقظًا فى صورة العملاء داخل أرض فلسطين .

هزم هناك ، ولكنه لم يهزم هنا بعد . .

وعلى هذا النحو ، فإن (الحالة) التى عاد بها الحاج من هناك لا تعنى اليقين بالقضاء على الشيطان ، ولكنها تعنى (الشعور) بوجود الشيطان دائمًا ، وإن كنت هزمته فى مكان ما . .

إن يوم العاشر من ذى الحجة لا يحسم قضية الخلاص ، وإنما يبدأ قضية مواصلة التنبه إلى أن الشيطان لابد وأن يأتيك ، وهو ما يغرينا بالعود هنا إلى شريعتى مرة أخرى ، الذى يحذرنا من العود وقد تجاهلنا الخطر ، وقد استغرقنا فى العبادة أو الاستعداد للعودة إلى ديارنا لنستأنف أعمالنا وحسب . . إنه يخاطب أيّاً منا فيقول : أنت / يا جندى الإيمان السائر على درب إبراهيم ، لا تنس أن العاشر من ذى الحجة هو (عيد الفدا) وليس (عيد النصر) بعد نجاح (الثورة) يا جنود التوحيد لا تلقوا بأسلحتكم جانبًا ، ولا تستغرقوا فى نشوة النصر أكثر مما يجب / إن هناك خطرًا داهمًا من الجيش المهزوم / لقد أطيح بالأصنام الثلاثة ، ولكن الأصنام الثلاثة ضاربها أطنابها فى (منى)/ بعد العيد ينبغى أن تحتفظ بروح البطولة ، وتظل مستعداً للقتال فى أى وقت . .

وعلى هذا النحو ، فإن الخطر الأكبر بدأ بمجرد عودتنا من هناك ، والخطر القائم يستيقظ أكثر ليحاول القضاء على حيويتنا وحريتنا فى الدفاع عن وجودنا ذاته ؛ فالمهم هنا ألا يتصور الإنسان أنه عاد بعد أن قضى على الشيطان .

الشيطان هناك على مستوى الرمز .

والشيطان هنا على مستوى الواقع ؛ سواء أكان خطرًا داخليًا (مجاهدة النفس أو خطرًا خارجيّاً بكل ما يحيط بنا من أعداء على المدى القريب أو البعيد - مكانيّاً وزمانيّاً- وهنا يبدأ الفهم الواعى لمعنى الجهاد .

إنه الجهاد المستمر دائمًا ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ (العنكبوت : ٦) . .

وعلى هذا النحو ، فإن العودة من المدينة تزيدنا وعيًا بالمخاطر فى داخلنا وحولنا . . وهو ما يفسر لنا الدعوة إلى إقامة (مؤتمر عالمى شامل) يكون الإنسان - بآدميته - مسئولاً سواء على المستوى الفردى - كإنسان - أو الجمعى - كأمة - وفى جميع الحالات يكون الإنسان هو المسئول بهذه (الأمانة) ، التى حملها ، ولابد من الوفاء للعمل بها ولها .

وليس (صدام حسين فقط) إنهم يهاجمون الشعوب ، ويرددون ما يجد آذانًا صاغية لهم فى الغرب ، أو تعلو أصواتهم فى أوقات بعينها مستنكرين عمليات الاستشهاد ، التى يقوم بها بعض الفلسطينيين كرد فعل للهدم والتفجير والجرافات والدبابات والطائرات ، التى تقوم كل يوم بل كل ساعة بقتل أهلنا فى فلسطين وإذلالهم ، والأرقام التى تنشرها الجهات المحايدة عن قتل الأطفال الفلسطينيين فقط (والتمثيل بجثثهم) تفزع حقًا !!

هل نقول يا مثقفى العرب اتحدوا ؟ وهل هؤلاء من المثقفين حقًا ؟ وهل . . ؟

* * *

٧ - الـــوداع

وبعد ، كان علينا بعد أن أتممنا الرمى الأخير ، رمى الجمرات ، أن نعود أدراجنا فى اليوم نفسه من جسر الجمرات .

عـدت من الرمى الأخـير ، وزاد الوقت الذى عـدت فيـه هذه المرة ، إذ قطعت الطريق متـمـهلاً متأمـلاً ؛ فهذه هى المرة الأخيـرة التى أعود فيـها من الرمى لنفـسى ولزوجتى .

كان الطريق الطويل الكثيف من الحجاج والبائعين وكان المناخ العام ؛ يمنح العائد للمرة الأخيرة أو الثالثة إحساسًا عامّاً يسيطر عليه .

وأعترف أن تمهلى ، أثناء العودة ، كان بإيعاز ذاتى خالص للتأمل فى هذا الهول ، الذى أراه الآن وسط ثلاثة مـلايين ، وهـم يغـذون الخطو - يرددون المناسك نفـسـهـا ويشعرون بالطاقة الروحية نفسها وإن تكن بدرجات . وهو ما يدفع إلى العود إلى ما بدأت به .

* * *

أعترف هنا ، أننى وإن كانت عواطفى ومشاعرى خضعت تمامًا لهذه الزيارة ، فإن عقلى كان متنبهًا أشد التنبه والوعى لدىّ كان فى أقصاه ، بحيث أنه لم تمر شاردة أو واردة ألا وكنت ملاحظًا لها ومتأملاً فيها . . والطريق الطويل من جسر الجمرات إلى مكان الإقامة يمكن أن يكون - مع الملاحظة والتأمل الشديدين - موضوعًا أو أكثر من موضوع ، لتباين الأجناس وتباين الدرجات الاجتماعية وتباين الأنواع النفسية وتباين الأحداث المأساوية التى يعيشها عالمنا الإسلامى ، ثم هذه العربات التى تمر من آن لآخر ، وتتبع الإدارة الأميرية بالماء البارد .

غير أن طريق العودة لم يستطع أن يمنحنى الأمان الروحى وحسب .

لم أستطع أن أخلص من إشارات أو دلالات هبطت على رأسى طيلة أيام الزيارة . . كالعاصفة . . إشارات ودلالات ، لم أستطع أن أخلص من ثقلها على وجدانى ، وها أنا أتمها عند أقلها القليل . .

❊ ❊ ❊

ومن تلك الدلالة التى يتذكرها المرء ، ولابد أن يتذكرها حين يصل إلى المسجد الحرام ، ويبدأ فى الذهاب عنه . . هذه الرحلة ، ودلالتها ، التى ذكرها القرآن الكريم فى أول سورة الإسراء التى قال فيها الله - عز وجل - :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

وأكثر ما يلاحظ هنا أن الآية ربطت بين مبدأ الإسراء ومنتهاه (المسجد الحرام والمسجد الأقصى) لحكمة ، وجدناها تتأكد كثيراً فى التاريخ من العلاقة الحميمة والدالة بين المسجدين ، والدلالة الأكبر التى نجدها فى الشعور واللاشعور المسلم بضرورة ، بل بطبيعة العلاقة الوثيقة بين المسجدين ، فمن يفرط فى أحدهما يفرط فى الآخر . .

❊ ❊ ❊

وربما كان أكثر ما لفت نظرى ودهشتى الشديدة علامات (العولمة) أو - بشكل أدق - (الأمركة) التى وجدتها فى الأراضى المقدسة بشكل فاق خيالى .

صحيح أننى كنت أجد بنكًا هولنديّاً أو/ وإسبانيّاً هنا وهنا ، غير أن العلامات والرموز الأمريكية كانت من العنف والثقل على وجدانى ، حتى أننى لم أستطع أن أخفى دهشتى ، فحدثت زوجتى التى آثرت فى كثير من الأحيان الصمت أو الانصراف إلى (الحالة) الروحية التى تعيش فيها . .

فى الطريق من جدة إلى مكة - على سبيل المثال - روعت حين قرأت فى الطريق ولمرات متعددة هذه الكلمة (أمريكا) ، والتى أعقبتها عبارة (الاسم الأول فى عالم اللحوم) ، وجاورها فى عدد من المرات عبارة (معرض فرنسا إير . .) .

وبينما لفت نظرى مرة أخرى (البنك السعودى - الهولندى) فى الطريق إلى الحرم المكى ، فقد تجددت دهشتى أكثر حين وجدت أكثر من محل (ماكدونالدز) فى هذا الطريق ، وهو يظهر من آن لآخر ، مع حركة العربة المتجهة إلى الحرم ، حتى أننى لم أفتقده قبل الحرم بعدة أمتار فقط . .

لم أستطع أن أفهم ذلك أول الأمر ، لكننى تيقنت - بعد انقشاع الغيمة - أن العم سام تسلل إلى هنا أيضًا ، نعلم جيدًا أنه تسلل إلى المملكة منذ أول القرن بشكل عملى ، وإن لم يكن قبل ذلك عبر الرحلات ، غير أنه يتواجد الآن عبر رموز العولمة وآلياتها المتناثرة والمكثفة هنا وهناك فى نهايات القرن العشرين ، فإن هذا لم يكن فى العقل الباطن أو الظاهر بأية حال . .

الأكثر من هذا كله ، أننى وأنا متوجه إلى مكة عن طريق البر ، لم أتنبه إلى ما يحيط بالحرم .

وكان ما صدمنى هذه المرة يفوق توقعى . .

فقد كانت وجهتى ، حين أجىء إلى الحرم - يحول بينى وبين أن ألم بما حوله أو يكون من أهدافى تفحص ما حوله ، وإنما هبطت بسرعة من أحد الأبواب الرئيسة إلى (طواف القدوم) لأطوف مرات سبعة ، ثم أقوم بصلاة ركعتين بمقام إبراهيم وأنا مستغرق فى الدعاء مذابًا فى هذا اللقاء ، صاعدًا للصفا لأقوم بالأشواط السبعة بين الصفا والمروة حتى إذا انتهيت من شرب ماء زمزم ، وهممت بالترجل من أبواب الحرم إلى الخارج ، حتى أفاجئ بما لم يمر بخاطرى أبدًا . .

بمجرد أن تركت المسجد الحرام حتى فوجئت قبالتى مباشرة محلاً ضخمًا مكتوبًا عليه (كنتاكى) . . المحلات والمطعم هو هو . . الهيئة التى أعرف بها الواجهة الأمريكية فى العواصم العربية والغربية . . لكنه يأخذ إبهارًا وسمتًا أكثر من أى محل رأيته بعد ذلك ، إننى فى باريس وجدت (الكنتاكى) ، لكننى حتى فى باريس لم أجد كل هذه الأبهة أمام المسجد الحرام . .

لم أستطع أن أخرج من دهشتى لوقت طويل . .

ماذا أرى ، اقتربت أكثر ، قرأت (يافطة ضخمة) مزينة بالعربية والإنجليزية هذه العبارات التى حرصت أن أدونها فى ورق :

- وجبة الحج والعمرة Haig & Omra Meals .
- دجاج كنتاكى .
- دجاج الحج والعمرة .

لم يمنع أن أقرأ فى المنطقة أيضًا عبارات من مثل :

(كل بيتزا هت) .

لم أتنقل كثيرًا حتى عادت اليافطة الضخمة أمامى ، أو عدت إليها :

- وجبات الحج والعمرة Haig & Omra Meals .

والغريب ، أو قل الطبيعى - وليصدقنى القارئ الكريم - لم أعد أعرف هل أخفى دهشتى أو أظهرها حين وجدت أن أعدادًا ضخمة جدًا ، أغلبها عائلات يلتهمن ما يقدم إليهن من هذه الأكلات المعروفة فى المطعم الأمريكى - الكونى .

وجدت فى منى - فيما بعد - ما ذكرنى بذلك ، فقد رأيت فى قلب المخيمات سفارة تحمل العلم الأمريكى ، وفيه كلمة Malaysia وهلال ونجمة . . وعرفت فيما بعد أنه مكتب أو سفارة ، ترتبط بأمريكا ارتباطًا جعلها تستعير علمها ليصبح علمها ، وأشهد أن ذلك كان غريبًا أشد الغرابة بالنسبة إلىَّ .

* * *

وبعد ، هل يغفر لى القارئ الكريم أننى لم أستطع أن أخلص تمامًا للزيارة ، بسماتها الروحية ، وإنما غرقت دون أن أدرى فى واقع العالم الإسلامى الردئ بعد أربعة عشر قرنًا على الهجرة النبوية . .

أخلص البعض للزيارة الروحية . .

وأخلصت أنا أيضًا - فيما جهدت - لكننى ؛ مع ذلك ؛ لم أستطع أن أغلق عيناى عن مشاهد المليودراما ، التى يعيش فيها كثير من مسلمى اليوم أو الأغلبية التى تعانى الكثير والكثير فى عالم يعرف الحضارة الغربية (حضارة العنف) ، وبلاد الله

وعبـاده الذين وقـعوا تحت نطع هذا العالم الغربى ، الأوروبى أو الأمـريكى(*) بعنف ترفضه العقيدة السمحة والعدل الإلهى .

* * *

وكان آخر عهدنا من مناسك الحج أن عدنا من . . . . . فى هذا الطريق الذى طالما قطعناه فى الأيام الأولى ، فـقـد ظللنا لأيام ، نتنقل من جـدة إلى مكة بطرقنا الخاصة .

عـدنا قـرب الصبـاح إلى الفندق الذى كنا نعـيش فيـه لأيام ، قبل أن ننتـقل من القنصلية المصرية إلى المسجد الحرام لنبدأ مناسك الحج الأخيرة .

هبطنا قرب انبلاج الصباح أمام الفندق ، وذهبنا لنأخذ حاجاتنا .

كان اليوم يوم الثلاثاء الذى هو يوم ١١ ذو الحجة ١٤٢١ (٦ مارس ٢٠٠١) .

وتأهبنا لتحملنا العربة بعد قليل إلى مطار جدة الدولى . .

اللهم تقبل واغفر لى ، وسامحنى . .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

(*) لم يمض وقت طويل حتى عرفنا (اعتداء ١١ سبتمبر) كما أطلق على عاصفة مانهاتن ، وما لبث العالم الأمريكى والمتحالف معه أن دمروا أفغانستان ولم يمض طويل وقت حتى سقطت بغداد . . وتداعت بقية العواصم العربية والإسلامية . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . .